الجمال اللونی فی الشعر العربی من خلال التنوع الدلالی

لیلا قاسمی حاجی آبادی*

مهدی ممتحن**

الملخص

یتناول هذا البحث دراسة جمالیة التشکیل اللونی فی الشعر العربی؛ فالتشکیل اللونی وسیلة من وسائل وصف النفس الإنسانیة بشکل عام، ومظهر هام من مظاهر الواقعیة فی الصور الشعریة، وتتوضح فی الألوان جملة من البنی الأسطوریة، والحضاریة المؤسسة لثقافات الشعوب؛ فکانت ذات دلالات جمالیة جدیرة بالحث، والتنقیب؛ وبما أن لکل لغة من لغات العالم مجموعة من الألوان فأردنا أن نرصد فی هذه الدراسة جانب اللون فی الشعر العربی لنعرف مدی تأثر الجاهلیین بالألوان عن طریق معالجة الدلالات اللونیة فی أشعارهم.

ففی هذا البحث ألقینا الضوء علی أهمیة دور الألوان لتکون أداة أساسیة فی الکشف عن محاور الجمال الفنی فی النص الأدبی، فاللون من أهم وأجمل ظواهر الطبیعة، ومن أهم العناصر التی تشکل الصورة الأدبیة لما یشتمل علیه من شتی الدلالات الفنیة، الدینیة، النفسیة، الاجتماعیة، الرمزیة، والأسطوریة.

الکلمات الدلیلیة: الجمال، اللون، القرآن الکریم، الشعر، الدلالة الفنیة والاجتماعیة، البیئة، القیمة الفنیة.

*. عضو هیئة التدریس بجامعة آزاد الإسلامیة فی گرمسار – أستاذة مساعدة.

**. عضو هیئة التدریس بجامعة آزاد الإسلامیة فی جیرفت – أستاذ مشارک.

Dr.momtahen@gmail.com

تاریخ الوصول: ١٣٩٠/٨/٤هـ. ش تاریخ القبول: ١٣٩٠/٩/١٠هـ. ش

المقدمة

هذه الدراسة ذات أهمية بالغة بما أننا لم نجد هناك دارساً انصرف إليها فى معالجة الألوان، فما وجدنا إلا شذرات متفرقة لدلالات اللون فى الشعر العربى عامة والشعر الجاهلى خاصة. فهذه الدراسة تتناول النصوص الأدبية فى العصر الجاهلى من حيث استعمال الألوان لتكشف عن قيمتها الفنية، وعن الرموز الجمالية التى وقف عليها الشعراء الجاهليون.

يقوم هذا البحث على أساس المنهج الوصفى، مقروناً بتحليل النصوص محاولاً الاستشهاد بآيات القرآن الكريم الدالة على اللون، ثم الاتيان بنماذج مختلفة من شعر الجاهليين للكشف عن القيم الجمالية للدلالات اللونية فى أشعارهم.

إن اللون موضوع معقد، وهو جزء من خبرات الإنسان الإدراكية والطبيعية للعالم المرئى، واللون لايؤثر فى قدرة الإنسان على التمييز فقط، بل إنه يغير المزاج والأحاسيس، وإن الألوان من أكثر الأشياء جمالاً وخصوبة فى حياة البشر؛ فيها أثرى الإنسان حياته، وأضفى عليها من بديع الجمال وبهائه ما لايحدّه واصف أو يحيط به خيال.

فالألوان ليست خطوطاً أو مسحات شكلية خالية من دلالات جمالية، وتعبيرية، ورمزية، وفى بعض الأحيان تزئينية؛ بل هى صور تعبر عن موضوعات الحياة، وانفعالات الفنان بها، والتدقيق فى الآثار الأدبية يرشدنا إلى أن استخدام اللون فى هذه الآثار ليس صدفة، وليس لتنميق الكلام فحسب بل له ارتباط وثيق بجميع المستويات البنيوية، والبلاغية، والتعبيرية للنص الأدبى.

ولا بد لنا من الإشارة بأن النظر إلى دلالة الألوان بكونها متغيرة بتغير المؤثرات النفسية والمقاييس الذوقية يدلّنا على عدم ثبات كثير من الأحكام الصادرة عن دلالتها لأن بعض الدلالات تتغير بتغير الظروف، والأزمان، وتأثير اللون قد يتغير بتغير الحالة النفسية للشخص الواحد.

العوامل المؤثرة على اختيار الألوان

لا شک أن اللون من أهم الظواهر والعناصر التى تشكل الصورة الأدبية لأن له ارتباطاً وثيقاً بجميع مجالات الحياة وظواهر الكون، وله علاقة وطيدة بالعلوم الطبيعية، وعلم النفس، والدين، والثقافة، والأدب، والفن، والأسطورة.

كل إنسان يفضل بعض الألوان ويحبه، ولايحب البعض الآخر، وقد يرفض بعض الألوان بالطبع. اختيار الألوان، ورفضها، وقبولها يعود إلى أسباب متنوعة فيزيولوجية، ونفسية، واجتماعية، ودينية، ورمزية، وذوقية. ولكل لون معنى نفسياً يتكون نتيجة لتأثيره الفيزيولوجى على الإنسان. يقال: إن الوقت يمضى بسرعة تحت أشعة خضراء، ويمضى ببطء تحت أشعة حمراء. فاللون الأخضر هادئ، وأما اللون الأحمر فمشهور بأنه مثير ومهيج ومقلق، ويؤدى إلى الشعور بالملل. فيمكن القول بأن الحالات النفسية والعاطفية قد تسبب عن آثار الألوان على الإنسان.

هكذا العوامل الاجتماعية كالآداب، والسنن، والتقاليد، والعادات لها أثرها فى اختيار وتفضيل اللون. فليس السواد لون الحداد والحزن عند كل الشعوب، كما أن البياض ليس لون الفرح والسرور عند الجميع.والبيئة الجغرافية، والإقليمية أيضاً لها أثر يذكر فى اختيار اللون، لأن كل شعب يمكن أن يحب لوناً ويستثمره وفقاً لظروفة البيئية والجغرافية. فمثلاً يعشق الجاهلى اللون الأخضر لأنه يبحث عن الخصوبة، والعشب، والشجر، فى الجزيرة ولايحب اللون الأحمر حينما يرتبط بالحرب، والقحط، والحرارة، والجفاف، والظمأ.

إذن تختلف وظائف أى لون باختلاف الحضارات والمجموعات البشرية. فنرى الوظيفة الرمزية للون فى الرسم الدينى البيزنطى فى القرون الوسطى. فالأزرق اللون الغالب على رداء العذراء الخارجى يرمز إلى النقاء، والصفاء، ولون ردائها يدلّ على دعة اللون، ويلمح الأحمر إلى العاطفة البشرية والانهماک الدنيوى، ويمثل الأخضر حالة الخصب، وحالة الأمومة. فالألوان بالإضافة إلى كونها مظهراً من مظاهر الواقعية تكون حاملة إرث ثقافى حيث تتوضح فى الألوان جملة من البنى الأسطورية الحضارية المؤسسة لثقافات الشعوب فلها دلالات جمالية. فالعوامل العرقية والبيئية لها أثر فى

تحديد مسارات الألوان الثقافية.

فاخترنا فى هذا المقال أن ندرس الجمال اللونى فى الشعر بما أن الشعر هو الذى يشهد على أثر خالقه، وصوره الزمنية، والمكانية؛ فالشاعر لم يقدر على أن يبتعد عن مجتمعه، وبيئته الاجتماعية، والطبيعية؛ وهو جزء منها لأنه عاش معها.فالشعر صورة فنية موازية لحياة أصحابه وبيئتهم، وهى تختزن فى عباراتها أفكارهم، وعاداتهم، وأنسابهم، ومشاعرهم فى كل زمان.

فالشعر الجاهلى هو الذى يحكى عن بيئة الشاعر وقبيلته لأن الأرض التى يعيش فيها هو موطنه والأحداث التى تجرى فيها هى خواطر وذكريات مشاعره، ولهذا نحن عندما نسمع كلمات الشاعر التى تغنى بالبيئة نحس كل شئ عن طبيعته، ومجتمعه، ونشهد التجربة التى مر بها الشاعر ونقلها إلينا فيصوره واقعا فنيا وفكرياً بأى شكل كان. (ممتحن، ١٣٨٨ش: ٢٠٢)

ومن الشعراء من يتأثر بهذه الطبيعة، ويستلهم بها أكثر من غيره، فيتجلى فى صوره الشعرية أهم ميزات الطبيعة، منها اللون؛ فاللون من العوامل التى تلعب دوراً أساسياً فى خلق صورة جميلة. (شوندى، ١٣٨٨ش: ١٣٨)

أما أهم دلالات الألوان فى أشعار الجاهليين فهو:

اللون الأبيض

من وجهة نظر سايكولوجية واجتماعية، هذا اللون لون الطهارة والخلوص والصفاء والنقاء والمحبة والخير والحق والعدالة. والكلمة البيضاء أطلقت على الحسنة يقال: «كلمته فما ردّ على سوداء ولا بيضاء.» أى كلمة قبيحة ولا حسنة، ويقال للئيم أسود الوجه، وللكريم خلاف ذلک ويقال: «ادّخر درهمک الأبيض ليومک الأسود.» فالأبيض عند اليونانيين دليل الفرح والسرور وهوررمز للطهارة والشرف فى معظم التقاليد لدى الشعوب وهو لون النقاوة والسلام. (إبراهيم محمود خليل، ٢٠٠٧م: ١٠٨)

كما أن بعض الآيات توضح لنا أنّ الطهارة والنقاء والإيمان والصفاء تتجسم بيضاء فى القيامة فتصبح وجوه الصالحين والطاهرين بيضاء لامعة: ﴿وأما الذين ابيضّت وجوههم

ففى رحمة الله هم فيها خالدون﴾ (آل عمران: ١٠٧)

فى هذه الآية (ابيضت وجوههم) كناية عن (صلحت أعمالهم وطهرت أرواحهم) كما أن فى الآية الشريفة: ﴿وادخل يدک فى جيبک تخرُج بيضاءَ من غيرِ سوءٍ﴾ (النمل: ١٢) استخدام هذا اللون دلالة واضحة وبيان لرسالة موسى (ع) لما أعطاه الله من القدرة لإثبات نبوته.

أما فى الشعر العربى فيعدّ هذا اللون من الألوان التى كثر حضوره، ويقترن كثيراً ما بجمال المرأة وجلال الرجل ورهافة السيوف والدروع فى الشعر الجاهلى، وتدور فى سياق الشرف والرفعة وكل معانى الخير؛ فإذا قالت العرب فلان أبيض، فالمعنى نقاء العرض من الدنس والعيوب ومن ذلک قول زهير يمدح رجلاً:

أشــمُ أبيــضُ فيــاضُ يفــکک عن أيدى العنــاةِ وعــن أعناقِهــا الرّبقا

وهذا كثير فى شعرهم لايريدون به بياض اللون، ولكنهم يريدون المدح بالكرم.

ولبيد يمدح قومه بلعب القمار:

وبيضٌ علــى النيران فى كل شــتوةٍ ســراة العشــاء يزجــرون المســابلا

فهو يرى أن من كمال الفتوة والكرم أن يقامر المرء. (ديوان: ٢٤٩)

كما جاء الأبيض فى شعر طرفة بهذا المعنى:

أما الملوک فأنت اليوم الأمهمو لؤمــاً وأبيضُهــم ســربالَ طباخ

تحييهــم بيــضُ الولائــدِ بينهم وأكسية الإضريج فوقَ المشاجب

يصونون أجســاداً قديماً نعيمُها بخالصةِ الأردانِ خضرُ المناكب

(شيخو، ٢٠٠٥م: ٢٠٩)

وهذا مايفهم من قول عمرو بن كلثوم فى وصف نساء قومه بالعفة والشرف والكرامة:

علــى آثارنا بيضٌ حســانٌ نحــاذرُ أن تقســمَ أو تهونا

(الزوزنى، ١٩٩٧م: ١٣٢)

فتغزل الشعراء الجاهليون بالمرأة البيضاء، وهم لايريدون البياض الخالص وإنما

البياض المشوب بصفرة كما نجد هذا المعنى عند امرئ القيس حينما يقول:

مهفهفــةٌ بيضاءُ غيــرُ مفاضة ترائبها مصقولةٌ كالســجنجل

كبكرِ المقانــاةِ البياضِ بصفرةٍ غذاها نميرُ المــاء غير محلّل

(الزوزنى، ١٩٩٧م: ٣٤)

فنرى هماً جمالياً كبيراً عند امرئ القيس إلى امتلاك المرأة البيضاء. ولكن لماذا المرأة البيضاء تحديدا؟ حينما ندقق نجد تفسيراً آخر لهذا الأمر، فالمجتمع الجاهلى ولاسيما فى عصر امرئ القيس كان شديد الافتقار إلى النساء البيض، وعلى ضوء هذه الحقيقة يمكننا تفسير إصرار كثير من شعراء الجاهلية على جمالية البشرة البيضاء، واتخاذه من أهم المعايير الجمالية للمرأة. بل من المفيد أن نتذكر الخاصية الجمالية للون الأبيض فى الثقافة العربية قديماً وحديثاً فكما قلنا سابقاً اللون الأبيض بات رمز النقاء والصفاء ورمز الطهر والسلام ورمز الجمال بشكل عام.

ومن أشعار طرفة فى الغزل:

ندامــاى بيضٌ كالنجــوم وقينة تــروح إلينا بين بردٍ ومجســدٍ

رحيب قطاب الجيبِ منها رقيقة بجــسِ الندامى بضــة المتجرد

(الزوزنى، ١٩٩٧م: ٥٨)

يشير إلى أنهم أحرار ولدتهم حرائر، أو وصفهم بالبياض لإشراق ألوانهم فى الأندية والمقامات إذ لم يلحقهم عار يعيرون به أو وصفهم بالبياض لنقائهم من العيوب.

ومنه:

كبنــات المخرِ يمــأدن إذا أنبت الصيف عساليج الخضر

(شيخو، ٢٠٠٥م: ٦٩)

وعسلوج ساق نبات أبيض. فطرفة شبه النسوة بالسحائب وخصّ بنات المخر لأنها أشدّ بياضاً.

كما استعمل الشاعر الجاهلى لون البياض فى وصف أعضاء المرأة فيقول امرؤالقيس فى وصف ساق حبيبه بالبردى الناصع البياض:

وكشحٍ لطيفٍ كالجديلِ مخصّر وساقٍ كأنبوبِ السقى المذلل

(الزوزنى، ١٩٩٧م: ٢٣)

كما أن عمرو بن كلثوم يعدّ ذراعى حبيبه الممتلئتين بيضاء وثدياً مثل حق العاج أبيض وساقين كأسطوانتين من عاج أو رخام أبيض فيهما الخلاخيل:

ذراعَــى عيطل أدمــاءَ بكر هجانَ اللونِ لَــم تقرأ جنينا

وثدياً مثل حق العاج رخصاً حصاناً من أكفِّ اللامســينا

وســاريتى بِلنــطٍ أو رخــامٍ يرنُّ خشــاش حليهما رنينا

(الزوزنى، ١٩٩٧م: ١٢١)

والأدماء: البيضاء والهجان الأبيض الخالص البياض فيقول عمرو بن كلثوم بأن تلك المرأة تريک ثدياً أبيض مثل العاج كما أن ساقيها أبيض.

فكما يبدو من أشعارهم أنهم تفاءلوا باللون الأبيض وعدّوه رمزاً للسلام والنقاء والبشارة، وهذا ما دفع بعضهم إلى تعميم القول فرأى أن الشاعر تفاءل بلون الناقة الأبيض فى قوله:

كتب البياض لها وبورک لونُها فعيونُها حتى الحواجبُ سود

ويقول امرؤالقيس فى وصف ناقته:

بأدمــاءَ حرجــوجٍ كأنّ قتودَها على أبلق الكشحين ليس بمُغرب

(شيخو، ١٩٩٧م: ٤٠)

وكما أشرنا سابقا الأدماء صفة للناقة البيضاء والمغرب الأبيض الوجه والأشفار.

ويفهم من الأبيات أن الشاعر يريد وصف لونها بالبياض وأنها بسبب هذا اللون كانت ميمونة ونرى أن الدلالة اللونية مختلفة، والشاعر حقا متفائل باللون الأبيض، ولكنه فيما يبدو لم يرد وصف الناقة بالبياض بل يتفاءل بهذا اللون.

كما أن العرب الجاهلى وصف الثور بلونه الأبيض فيقول امرؤالقيس:

فعادى عداءً بين ثورٍ ونعجةٍ وبين شبوبٍ كالقضيمةِ قرهَب

(شيخو، ١٩٩٧م: ٤٢)

والقضيمة الصحيفة البيضاء شبه بها الثور لبياضه.فامرؤالقيس يصف لون البقرة بأنه أبيض ناصع.كما يصف الجاهليون الظبى الأبيض فيقول امرؤالقيس:

ولا مثلَ يوم فى قُذاران ظلتُه كأنى وأصحابى على قَرن أعفرا

(شيخو، ١٩٩٧م: ٥٠)

والأعفر الظبى الأبيض فى بياضه حمرة.

اللون الأسود

يستخدم هذا اللون للظلام، والصمت، واليأس، والخيبة، والفناء، ورمز الحزن، والهم، والموت، والإخفاق، واللون الذى يمثل الظلم، والضلالة، والغضب، والإثم، والكفر.

ورد اللون الأسود سبع مرات فى القرآن الكريم بعضها تمثل الكفر والارتداد والعصيان والتكذيب. فسواد الوجه يرمز إلى سواد الروح وتلوثها تمثل وتجسّم فى وجوههم:

﴿وترى الذين كذَّبوا على الله وجوههم مسودّةٌ أليس فى جهنم مثوى للمتكبرين﴾ (زمر: ٦٠)

﴿يومَ تبيضُّ وجوهٌ وتسودُّ وجوهٌ فأمّا الذينَ اسودَّت وجوهُهُم أكفرتُم بعد إيمانِكم فذوقوا العذابَ بما كنتم تكفرون﴾ (آل عمران: ١٠٦)

وقد يكنّى به عن شدة الغضب وحدة الغيظ: ﴿وإذا بشّر أحدُهُم بالأنثى ظلّ وجُهُه مسودّاً وهو كظيمٌ﴾ (نحل: ٥٨)

وقد وظف هذا اللون للدلالة على آثار قدرة الله: ﴿ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفاً ألوانها ومن الجبال جددٌ بيضٌ وحمرٌ مختلفٌ ألوانها وغرابيب سود﴾ (فاطر: ٢٧)

فلون الأسود هو لون الحزن والحداد، كما يدلّ على الفرح أيضاً كما أن اللون الأبيض هو لون الحداد فى الأندلس، وهو لون الحداد أيضاً عند المغاربة ومن هذا التضاد الظاهرى قد تلمس تعليلاً يحل إشكالية ذلک أن من يرتدى الأسود حداداً فهو يظهر حزنه على الميت المفقود، ومن يلبس الأبيض حداداً فإنّما يتفاءل له بأن يقابل ربه

بأعمال طيبة أو ينال رضا الله ومغفرته. (المرهون الصفار، ٢٠١٠م: ٢٦٥)

فاللون الأسود رمز خيبة الأمل فى المجتمع الجاهلى فقد نعت العرب الجاهلى كل شيء بغضته نفوسهم بلون الأسود فعبّروا عن الحقد بأنه أسود، ووصفوا الأكباد الحاقدة بالسوداء. قال الجاحظ: «يقولون سود الأكباد، يريدون العداوة.» (الجاحظ، ج٣، لاتا: ٢٦٧)

يقول الأعشى:

فما أجشـــمت فى إتيانِ قومٍ هم الأعــداءُ والأكبادُ ســودٌ

فوصف أكبادهم بالسوداء، ليدلّ علىً شدة عدائهم وبغضائهم، ويقول البعض بأن سبب وصف الأكباد بالسواد هو اعتقادهم أن الحقد أحرق أكبادهم حتى اسودّت.فنجد بأن السواد يرتبط فى بعض الأحيان بقبح المرأة والرجل، ولاسيما فى نطاق الطبقة الفقيرة وله صلة بروعة القدور فى أيام القحط. فيقول عامر بن الطفيل:

وأنت لسوداءُ المعاصمِ جعدة وأقعسُ من نسل الإماء العوارک

فهو يحطّ من شأن أحد مهجويه فى هذا البيت، ويعيره بأنه السوداء ويقول عروة بن الورد:

أبى الخفض من يغشاک من ذى قرابة ومن كل ســوداء المعاصــم تعترى

(شيخو، ١٩٩٧م: ٢٢)

وسوداء المعاصم امرأة فقيرة اشتدّ بها الجوع والهزال والبرد، فاصطلت بالنار حتى اسودّ معصماها.

ويأتى الليل واقترانه بالظلمة رمزاً وتكثيفاً للون السواد ودلالاته. نجد هذا فى شعر عنترة بن شداد حين اختار الليل بما يجد من تكثيف السواد وظلمة الأمل فى نفسه ليكون زمناً لرحلة الحبيبة وفراقها له وإلا فالليل قد يكون مقمراً وجميلاً ومرتبطاً بالراحة والمتعة إلا أن عنترة اختاره وقرنه بالظلمة ليدل على شعوره باليأس من خلال تعبير ليل مظلم:

إن كنــتِ أزمعتِ الفــراق فإنما زمّــت ركائبكــم بليــلٍ مظلــم

(الزوزنى، ٢٠٠٥م: ١٣٨)

وحينما نراجع إلى حياة امرئ القيس نجده كان فى أزمة دائمة وكرب مستمر كان كذلک فى حياة أبيه وظلّ كذلک بعد مصرعه أيضاً ونحسب أن ذاک الكرب الشامل قد تجسد بدقة ووضوح فى الظلام الشامل أبياته. إنه ظلام وليس مجرد ليل، والشاعر توّاق إلى انقشاع الظلمة ومتلهف إلى انجلاء الغمة. إنه يبحث عن الفرح، عن الخلاص، عن السلام وعن الضياء، وكانت المرأة بوجهها المشرق الأبيض أبهى تجسيد لذاک الضياء:

وليــلٍ كموجِ البحــرِ أرخى ســدولَهُ علــى بأنــواعِ الهمــومِ لِيتبلــى

ألا أيهــا الليــلُ الطويــلُ ألا انجلــى بصبــحٍ وما الإصبــاحُ منــکَ بأمثلِ

(الزوزنى، ٢٠٠٥م: ٢٦ و٢٧)

نجد بأنه قد أعطى إلى الليل لوناً أسود، ويرمز به شدة همومه وأحزانه. ولما كان الليل زمن المغادرة معادياً للشاعر فقد أعطاه الشاعر تركيزاً لونياً أكثر بواسطة مظلم، ففيه تكثيف وتعبير عن قوة الإحساس بفقد الحبيبة حيث لا شيء جميل أو مريح يحيط الشاعر بعد رحيلها.

ودلالة اللون الأسود على خيبة الأمل والخوف يجعلنا نقف عند رأى عبدالقاهر الجرجانى فى تعليقه على بيت النابغة الذبيانى:

فإنــک كالليــلِ الذى هــو مُدركى وإن خلتُ أنّ المُنتَأى عنک واسعٌ

(شيخو، ١٩٩٧م: ٢١٢)

بأن اللون ليس مقصوداً لذاته فى كلمة الليل التى شبه بها النابغة النعمان بن المنذر، بل قصد وصف قدرة النعمان على الوصول إلى كل مكان، واختار الليل لأنه يغشى فى نفسه التخوف منه ولم يشبهه بالنهار.

فحينما نتفحص أشعار الجاهليين نرى بأن هذا اللون كثيراً ما استخدم رمزاً لجمال المرأة فيصف امرؤالقيس شعر حبيبته بالسواد:

وفرعٍ يزينُ المتنَ أســود فاحمٍ أثيثٍ كقنــو النخلــة المتعثكلِ

(الزوزنى، ٢٠٠٥م: ٢٧)

والشاعر الجاهلى يعتبر أجمل الشفة أيضاً الشفة السوداء، كما نجد هذا المعنى عند طرفة حينما يقول:

وفى الحى أحوى ينفضُ المردَشادنٌ مظاهــرُ سِــمطَى لؤلــؤٍ وزبرجد

وتبســمُ عــن ألمــى كأنّ منوراً تخلَّلَ حــرَّ الرملِ دعصٍ له ندى

(الزوزنى، ٢٠٠٥م: ٤٦)

اللون الأحمر

اللون الأحمر لون القوة والقدرة والحياة والحركة، وأما عاطفياً فيعتبر اللون الأحمر لون الحب الملتهب والتفاؤل والقوة والشباب.

أكثر الشعراء القدماء من استخدامهم هذا اللون نتيجة وعيهم الجمالى، ولدوره فى أصل الوجود والواقع لذلک تنوعت الألفاظ التى كثرت لتعبر عن ماهيته وقيمته ومدى نقائه ودرجة تشعبه من ذلک قولهم أحمر، أحمر قانى واضريجٍ، جريال، عندم، اسفع، كميت و... كما يمثل هذا اللون: الشر والكفر والقتل والدم كما يعبر عن الفرح والسرور ويستخدم فى الأعياد.

لم يرد اللون الأحمر فى القرآن الكريم بلفظ صريح إلا مرة واحدة مزروعة بين اللونين الأبيض والأسود: ﴿ومن الجبال جددٌ بيضٌ وحمرٌ مختلفٌ ألوانها﴾ (فاطر: ٢٧) فالحمر فى الآية الشريفة يبين تلون الطبيعة وتنوعها ليدلّ على المنة الإلهية ودعوة الناس إلى التفكير.

فهذا اللون استخدم بغير لفظة فى آية: «فكانت وردة كالدهان» فوظف ''الوردة'' فى هذه الصورة الفنية لتدل على لون السماء حين تنفرج أبوابها لنزول الملائكة فشبه السماء يوم القيامة فى اختلاف ألوانها بالورد.

التصوير تدل على شدة العذاب تهويلاً وتخويفاً للعصاة والمذنبين لأن الحمرة تمثل وتجسم لهيب النار.

أما الشاعر الجاهلي فيتفهم الخصائص الجمالية للألوان تفهماً دقيقاً ويحسن استثمارها في الصور الشعرية. إن اللون الأحمر يظهر على الغالب في الموضوعات ذات الصلة بالشراسة، والعنف، والمفارقات الصارخة. فعنترة يعاجل زوج إحدى الغانيات بضربة ما تطاير منه دم كلون العندم في حمرته:

سـبقت يداى له بعاجلِ طعنة ورشـاش نافذة كلـونِ العندمِ

(الزوزني، ٢٠٠٥م: ٨٩)

ويورد بنو تغلب قوم عمرو بن كلثوم الرايات بيضاً ويصدرونهنّ حمراً:

فإنـا نوردُ الرايـاتِ بيضاً ونصدرهنّ حمراً قدروينا

ويشير مهلهل إلى هذا المضمون أيضاً:

نرمي الرماح بأيدينا فنوردها بيضـاً ونصدرها حمراً أعاليها

(شيخو، ١٩٩٧م: ٢٧٤)

فيخرج من المعركة مع قومه ورماحهم يقطرن بالدم.ويقول امرؤالقيس في وصف بنان الحبيب:

بمخضـبٍ رخـصٍ كأنّ بنانـه عنـمٌ علـى أغصانـه لـم يعقد

ويقول في مكان آخر:

كأنّ ثيابَنـا منّـا ومنهـم خُضبن بأرجـوانٍ أو طُلينا

(الزوزني، ٢٠٠٥م: ١٢٦)

ويقول زهير في وصف لون أنماط الحبيب:

علـون بأنماطٍ عتـاقٍ وكلّةٍ ورادٍ حواشـيها مشاكهةِ الدمِ

(الزوزني، ٢٠٠٥م: ٧٦)

كما أن الجاهلي كثيراً ما وصف فرسه بلونه الأحمر فيقول امرؤالقيس:

كميتٍ يزلّ اللبد عن حالِ متنه كما زلّت الصفـواءُ بالمتنزّلِ

(الزوزني، ٢٠٠٥م: ٣١)

ويقول طرفة في مكان آخر:

أيهــا الفتيانُ فى مجلِســنا جــرّدوا منها ورداً وشُــقُر

(شيخو، ١٩٩٧م: ٧٢)

والورد الفرس بلون الورد.

فالأحمر إذاً موضع تقاطع حاد بين الحب والحرب، وهما موضوعان كثيران يناسبهم عنصر الإثارة الكامن فى اللون الأحمر، وقد لاحظ ول ديورانت الظاهرة ذاتها فى تلافيف الثقافات الأخرى وانتهى إلى أن اللون الأحمر أعزّ الألوان فى لعبة الحب والحرب. (أحمد محمود خليل، ١٩٩٦م: ٢٠٢)

اللون الأخضر

هذا اللون هو لون الحياة الحركة والسرور، لأنه يهدئ النفس ويسرها وهو تعبير عن الحياة والخصب والنماء والأمل والسلام والتفاؤل، وهو لون الطبيعة الحية. فيعتبر هذا اللون فى الفكر الدينى رمزاً للخير والإيمان، وأنه أكثر شيوعاً فى الروايات العربية الإسلامية فيضفى هذا اللون بعض السكينة على النفس ويساعد الإنسان على الصبر.

قد وردت لفظة الأخضر ثمانى مرّات فى القرآن الكريم فاستخدمت لبيان ماهية وجمال ثياب ومجلس أهل الجنة. ﴿ويلبسون ثياباً خضراً من سندس واستبرق﴾ (الكهف: ٣١)

كما أنها اقترنت بالنبات دلالة على جمال الكون وحيويته كمظهر من مظاهر القدرة والرحمة الإلهية المطلقة. القدرة التى تجعل الشجر الأخضر حطباً يحترق ومولداً للطاقة ليستثمره الإنسان فى حياته. ﴿الذى جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فإذا منه توقدون﴾ (يس: ٢٨)

القدرة التى تخرج من التراب نباتاً أخضر: ﴿وأخرجنا به نبات كل شىء فأخرجنا منه خضراً﴾ (الأنعام: ٦٩)

أما فى الأدب العربى فنرى بأن العرب أكثر من وصف الحيوانات والنباتات باللون الأخضر، ولم يكن أحب إليهم من اللون الأخضر خاصة فى الصحراء المجدبة، وبقى هذا

اللون أحبّ الألوان إليهم حتى بعد تغير بيئاتهم وانتشارهم فى بيئات جديدة. إنه ربط بين الأخضر وبين نزول الماء من السماء واكتساء الأرض بالخضرة والنبات الذى فيه رزق للإنسان ومواشيه ومن ثم انبعاث الخير من هذه الخضرة وخيرات الأرض.

ولع العرب بلباس اللون الأخضر واستخدموه فى رياشهم. قال النابغة الذبيانى:

يصونون أجســاداً قديماً نعيمها　　بخالصــة الأردان خضر المناكب

(شيخو، ١٩٩٧م: ٢٠٩)

فالأخضر فى الشعر الجاهلى حيناً يظهر فى تصوير الرياض والخمائل أو الملابس وحيناً آخر فى وصف العيش كما يقول النابغة:

ولقــد أراه بغبطــة　　فى العيش مخضــراً جنابُه

فخوى وما من ذى شــبابٍ　　دائــمٍ أبــداً شــبابُه

(شيخو، ١٩٩٧م: ٢٢٤)

اللون الأزرق

يعتبر هذا اللون لون السكينة والهدوء والصداقة والتفكير ؛اللون الذى يخفّف من حدّة ثورة الغضب ويهدئ النفس لأنه يرتبط بالماء والسماء ويرمز إلى الصدق والخلود والإخلاص. قيل إن الأزرق الغامق يدلّ على التمييز والشعور بالمسؤولية والإيمان، واللون الأزرق الفاتح يعكس النقة والبراءة والشباب. فهذا اللون من الألوان المقدسة عند اليهود كما أن اللون الأخضر يعدّ من الألوان المقدسة عند المسلمين.

مع هذا يدلّ اللون الأزرق على الحزن والكآبة أيضاً، كما أنه ورد فى القرآن الكريم بهذا المعنى (لم يرد إلا مرة واحدة): ﴿يومَ ينفخُ فى الصّورِ ونَحشُرُ المجرمينَ يومئذٍ زُرقاً﴾ (طه: ١٠١)

يقول صاحب مجمع البيان بأنه يريد بالمجرمين الذين اتخذوا مع الله إلهاً يحشرون زرق العيون، ومعنى الزرقة الخضرة فى سواد العيون كعين السنّور، والمعنى فى هذا تشويه الخلق. وقيل زرقاً عمياً ترى زرقاً وهى عمى وقيل عطاشاً فى مظهر عيونهم كالزرقة. (طبرسى، ١٣٨٤ش: ٨٣)

والعرب كان يطلق لون الزرقة على الأعاجم كما يصف الأعشى النبيط بالزرق:

ويروى النبيط الزرق من حجراتِهِ ديــاراً تــروى بالأتــى المعمّــد

وقال فى قصيدة أخرى يصف ساقى الخمر بأنه أزيرق دلالة على أنه أعجمى:

تنخلهــا من بــكار القطاف أزيــرق آمــن إكســادها

وسبب ذلک يرجع إلى أنهم يصفون عيون الأغرباء بالزرقة.

كما أننا نجد فى الشعر الجاهلى بأن هذا اللون تارة يوحى بالعنف والقسوة فى مجال الصراع حيث النصال والأسنة بزرقتها المخيفة، وتارة أخرى يوحى بالطمأنينة والسكينة فى وصف المياه الصافية الساجية. كما يقول زهير بن أبى سلمى:

فلما وردنَ الماءَ زُرقاً جمامُهُ وضعنَ عصى الحاضرِ المتخيمِ

(الزوزنى، ٢٠٠٥م: ٧٦)

وماء أزرق ماء صافٍ، والزرق المياه الصافية، وإطلاق الزرقة على الماء لما هو معروف من إنعكاس الألوان على المياه إذا كانت محاطة بالأشجار أو كانت السماء صافية أو ملبدة بالغيوم، كل ذلک يعكس لونه على الماء فيبدو كأنه ميال إلى الزرقة لشدة تكاثفه. (مرهون الصفار، ٢٠١٠م: ٣٤٢)

اللون الأصفر

ولهذا اللون علاقة بالموت والاضمحلال تارة، وبالبهجة ومجالس الخمر وجمال المرأة تارة أخرى. فيعتبر هذا اللون من أشد الألوان فرحاً وأكثر الألوان إضاءة لأنه منير للغاية بما أنه لون الشمس ومصدر الضوء ويمثل قمة التوهج والإشراق والنشاط والسرور. فاستخدمه المصريون القدماء رمزاً لإلهة الشمس وللوقاية من المرض. واللون الأصفر هو اللون الملكى، وكان شعار بوذا ورجال الدين، وهو شعار الربيع عند قدماء الألمان، وهو لون مقدس فى الصين والهند وعند أوربا المسيحية.

كما أن للون الأصفر دلالة أخرى تناقض الأولى وهى دلالته على الحزن والهم والذبول والكسل والموت والفناء، ربما الدلالة هذه ترتبط بالخريف وموت الطبيعة

والصحارى الجافة وصفرة وجوه المرضى. وورد هذا اللون فى القرآن الكريم خمس مرات منها: ﴿قال إنّه يقول إنها بقرةٌ صفراءُ فاقعٌ لونُها تسرُّ الناظرين﴾ (البقرة: ٦٩)

قال الطبرسى: وجملة «تسرّ الناظرين» يبين دلالة هذا اللون المبهجة فى الطبيعة فتسر الناظرين أى تعجبهم وتفرحهم بحسنها، وروى عن الصادق (ع) أنه قال: من لبس نعلاً صفراء لم يزل مسروراً حتى يبليها.

فوصف هذه البقرة باللون الأصفر تحديد لماهية لونها والدلالة على جمال هذا اللون وتأثيره النفسى على الإنسان.

فى الآيات الأربعة الباقية المذكور فيها هذا اللون، لانجد دلالة إلا ما يدل على المرض والموت والفناء: ﴿اعلموا أنّما الحياة الدنيا لعبٌ ولهو وزينةٌ وتفاخرٌ بينَكم وتكاثر فى الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يكون حطاماً﴾ (حديد: ٢٠)

إذن فى الآية صورة تمثيلية لنهاية الحياة وفناء لذائذها. شبهت ملاهى الحياة ولذائذها باخضرار الأرض وخصوبتها بعد نزول أمطار غزيرة فلم تلبث الأرض أن تجف وتصير قاحلة ويتحطّم زرعها اليابس. فالاصفرار فى هذه الآية يدل على ذبول الموت والاضمحلال فى كل الصورة ويقصد هداية الناس وتوجيههم نحو السعادة.

كما رأينا للون الأصفر دلالات متعددة لارتباطه بتداعيات مختلفة: قد يوحى بالخير والتفاؤل حين تذكر الشمس والذهب وبعض الثمار وقد ترتبط الصفرة بالمرض والنبات الذابل وغير ذلک مما ذكرنا.

وقد اختلفوا فى تبيان تأثير اللون الأصفر على النفوس، فقد عدّه البعض لوناً بارداً وهذا يعنى أنه يوحى بالبرودة، وعدّه آخرون لوناً دافئا يذكر بالشمس فلهذا اللون ليس دلالة واحدة ولا إيحاءات ثابتة أما فى الشعر الجاهلى فقد وردت بكثرة الصفرة. ووردت الصفرة المشوبة بالحمرة سمة جمالية عند العرب فى الجاهلية والعرب تدعى لنسائها الصفرة. يقول الأعشى:

تلک خیلی فیها وتلک رکابی هنّ صفراًأولادهاکرةکالزبیب

وشبه علقمة المرأة بالزعفران:

یحملنَ أترجّةً نضخُ العبیر بها کأنّ تطیابها فی الأنفِ مشموم

(شیخو، ۱۹۹۷م: ۱۷۵)

أراد المرأة المطلیة بالزعفران حتی اصفر لونها وطابت رائحتها فاشبهت تلک الیمونة.

ووصف الأعشی فی شعره القینة التی تعزف لهم بأنها تلبس ثوباً خفیفاً معطراً بالمسک ملطخاً بالزعفران:

وقد أقطع الیوم الطویل بفتیةٍ مســـامیح تسقی والخباء مروق

وراعة بالمسک صفراء عندنا بجسِّ الندامی فی ید الورع مفتق

(شیخو، ۱۹۹۷م: ۲۴۲)

ووصف الخیول بأنها صفراء اللون:

تلک خیلی منه وتلک رکابی هنّ صفــر أولادها کالزبیبِ

النتیجة

استخدام الألوان فی أشعار الجاهلیین لیس صدفة بل له ارتباط وثیق ببیئته ونفسیته ولکل لون طابعه الجمالی الذی یستمدّ من البنائیة التی ینتمی إلیها. والألوان الرئیسة علی اللوحات الجمالیة فی الشعر الجاهلی هی: الأبیض، والأسود، والأحمر، والأصفر، والأزرق.

فالشاعر الجاهلی کثیراً ما استخدم اللون الأبیض فی أشعاره ویعدّه رمزاً للجمال کما أنّه یعشق اللون الأخضر لأنه یعیش فی قفار مجدبة ویبحث دائماً عن العشب والکلأ. ویکره العرب الجاهلی اللون الأسود ووصف کل شیء مکروه عنده بهذا اللون، ویدل الأسود علی الخوف والحزن والخیبة عند العرب الجاهلی، والأحمر عند الجاهلیین لون الحب والحرب فاستخدموا هذا اللون لوصف بنان الحبیب وأنامله کما نجد هذا اللون فی

وصف الفرس عند الجاهليين. كما أن الجاهلى يعشق الأخضر بما أنّه يعيش فى القفار ودائماً يطوى الصحراء فى طلب الكلأ والعشب.

فحينما ندقق فى استخدام هذه الألوان فى الشعر العربى نجد بأن هذه الألوان قد تتكرر لدى الشعراء ومرد ذلك إلى البيئة المحدودة التى تتكرر فيها المشاهد وتتشابه فيها الصور وهذه الصور وإن كانت متشابهة فى إطارها العام لكن لكل صورة معالجة معينة وتفصيلات خاصة بها.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

الجبورى، يحيى. ٢٠٠١ م.*الشعر الجاهلى خصائصه وفنونه*. بيروت: موسسة الرسالة.

الزوزنى، ٢٠٠٥م. *شرح المعلقات السبع*. بيروت: دار صادر.

شوندى، حسن. ١٣٨٨ش. *الحركة فى الصورة الشعرية*. فصيلة التراث الأدبى. السنة الأولى. العدد الثالث. جامعة آزاد الإسلامية جيرفت. ١٣٧-١٤٩.

شيخو، الأب. ١٩٩٧م. *المجانى الحديثة*. بيروت: دار المشرق.

طبرسى، فضل بن حسن. ١٣٨٤ش. *مجمع البيان فى تفسير القرآن والفرقان*. إيران: دار الأسوة للطباعة والنشر.

متحن، مهدى. ١٣٨٨ش. *الأدب الجاهلى بين البيئتين الطبيعية والاجتماعية*. فصيلة التراث الأدبى. السنة الأولى. العدد الثالث. جامعة آزاد الإسلامية جيرفت. ٢٠٧-٢١٦.

محمود خليل، إبراهيم. ٢٠٠٧م. *النقد الأدبى الحديث من المحاكاة إلى التفكيك*. بيروت: دار المسيرة للنشر والتوزيع والطباعة.

محمود خليل، أحمد. ١٩٩٦م. *فى النقد الجمالى رؤيته فى الشعر الجاهلى*. بيروت: دارالفكر المعاصر.

مرهون الصفار، ابتسام. ٢٠١٠م. *جمالية التشكيل اللونى فى القرآن الكريم*. أردن: عالم الكتب الحديث.

AlQuran alkarim

Aljabori,Yahya, 2007:pre Islamic poem, Features and Techniques, Beyroot, al resalah establishment.,ed.ninth

Al zozani, 2005, Explanation of seven moallaghat, Beyroot, Dar alsadr

Sheikhoo, alab, 1997, Almajani-al hadisah, Beyroot, dar almashregh, ed.forth

Tabarsi, fazl-inb hasan, 2005, majmaoal bayan, in quran interpretation, iran, dar-alosveh for printing and publication.

Mahmoud khalih, ibraham, 2007, new literary critieism from emitation untill separation, beyrot, dar al-masirah for publieation and distribution and printing. ed, second.

Mahmoud Khalil, ahmad, 1996: In aestheticf criticism looking at pre-islamic poem. beyroot, dar Al-fekr al-moaser.

Marhoon Al-safar, ebtesam, 2010, beaty of colour structure in Al-quran, Al-karim, ordon, the new world of the books.

Journal lists

Shavandi, hasan, 2009, article"dy namism in the poetic image", Quarterly culture literary. vol.1No.3 summer 2009, first year. Islamic azad university, jiroft branch, (137-149)

Momtahen, Mehdi, 2009, literature of darkness era and natural and social invitonment Quarterly culture literary.vol.1No.3 summer 2009, first year Islamic azad university, jiroft branch, (201-216)